

الآفات الاجتماعية في المجتمع الغرناطي الحشيشة أنموذجاً

(٧٦١ - ٧٦٣هـ / ١٣٥٩ - ١٣٦١م)

أ.م.د. رائد محمد حامد حسن الطائي*

تأريخ القبول: ٢٠١٣/٢/٢٠

تأريخ التقديم: ٢٠١٣/١/٣

المستخلص:

يهدف هذا البحث الى تسليط الضوء على آفة انتشرت في المجتمع الغرناطي والتي من المفترض أن تكون خفية ويلفها الصمت والخفاء، ولكن على النقيض من ذلك فإن هذه الآفة الدخيلة على العادات والآداب الاسلامية كانت علنية ويتعاطاها العامة والخاصة، الا وهي آفة تعاطي الحشيشة في أوساط المجتمع الغرناطي.

والملفت للنظر في ذلك العهد هو تغني الشعراء بهذه الآفة الهدامة وتفضيلها على الكحول متتاسين أن الترويج لتلك الآفة خطر يهدد كيان الأمة الاسلامية ويفت في عضد أي مجتمع.

الكلمات المفتاحية: الآفات الاجتماعية، العادات الاسلامية، المخدرات، المجتمع الغرناطي.

المقدمة:

لقد نخرت في جسد المجتمع الغرناطي العديد من الآفات التي كانت بعيدة كل البعد عن الدين الاسلامي الحنيف، وكانت بمثابة معاول هادمة للمجتمع الذي كان يقلد النصارى في المحرمات، حيث كانت هنالك حرية اجتماعية واسعة فمجالس الشرب والغناء والرقص كانت تعقد على ضفاف الانهار وفي البساتين وفي بيوت الناس من غير

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

رابع من الرقيب^(١)، حتى أن سهولة الحصول على الخمر وتناولها في المدن الاندلسية قد أدى الى تزايد مخاطر حرية العادات^(٢)، وقد اشير الى أن والي اشراف غرناطة كان شغوف بالنساء والخمر^(٣)، وأن نفقات الدولة استهدفت قبل كل شيء خدمة الفئات النافذة التي مالت الى البذخ عن طريق القصور والرياش^(٤) ومجالس اللهو والخمر والموسيقى والغناء واقتناء الجوارح والغلما^(٥). وكانت صحبة المخنثين والنساء الساقطات وقضاء الليالي في الحانات أمور بدهاءة^(٦)، وقد كان هنالك استهتار بالدين وانحلال في الاخلاق وجرأة على الاعراض^(٧)، أدى الى الاصابة بمرض التكالب على اللذة والانغماس فيها وما ينتج عن ذلك من انحلال في الاخلاق وخور في العزيمة^(٨)، وقد مارس الغرناطيون العاب الميسر سراً لأن الدين يحظره وكان هم المحتسب مراقبة النوادي التي يقصدها المقامرون وملاحقة مروجي الالعاب الممنوعة^(٩)، وقد برزت آفة جديدة تمثلت بالقسوة

(١) توفيق، عمر ابراهيم، صورة المجتمع الاندلسي في القرن الخامس للهجرة، "سياسياً وثقافياً"، (ط١)، دار غيداء، عمان: ٢٠١٠)، ص ١٤٣.

(٢) بروفنسال، ليفي، تاريخ اسبانيا من الفتح الى سقوط القرطبية، (١١٧١هـ / ١٠٣١م)، ترجمة: علي عبدالرؤف البمبي وآخرون، مراجعة: صلاح فضل، (ط١)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة: ٢٠٠٢)، مج ٢ / ٣٨٠.

(٣) شيخة، جمعة، الفن والحروب واثرها في الشعر الاندلسي (ما سقوط الخلافة ق ٥هـ / ١١م الى سقوط غرناطة ق ٩هـ / ١٥م)، (ط١)، المطبعة المغربية للطباعة والنشر والاشهار تونس: ١٩٩٤)، ١ / ١٧٥.

(٤) الرياش: اللباس الفاخر والاثاث والحالة الجميلة، انظر: مسعود، جبران، الرائد معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقاً لحروفها الأولى، (ط١)، دار العلم للملايين: بيروت: ١٩٦٤)، ص ٧٦٠.

(٥) فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر (دراسة حضارية)، ط١، دار الجيل، بيروت: ١٩٩٣)، ص ١٠٠.

(٦) بروفنسال، تاريخ اسبانيا، جج ٢ / ٣٨١.

(٧) شيخة، المرجع السابق، ١ / ١٩٤-١٩٥.

(٨) شيخة، نفسه، ١ / ٣٤٣.

(٩) فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر - دراسة حضارية، (ط١)، دار الجيل، بيروت: ١٩٩٣)، ص ١١٧.

التي اصبحت سمة العصر^(١)، فقد روي أ، والي غرناطة نيالة اللمتوني (اقصى من منصبه سنة ٥٢٢هـ / ١٢٨م) كان ظلوماً وقد اشتد في تحصيل المال من الرعية وظلم اهله^(٢).

كل تلك المخالفات الشرعية أدت الى انحلال المجتمع واصبح كجسم هرم هذه المرض وفت في عضده، وقد توجت لك الآفات الدخيلة على الدين الاسلامي بتعاطي الحشيشة من قبل العامة والخاصة وبشكل ملفت للنظر، فضلاً عن التغني بها من قبل الشعراء وتفضيلها على الخمر وذلك في عهد سلطان غرناطة ابو سعيد البرميخو.

يبدو أن ظاهرة تعاطي الحشيشة في غرناطة لها عمق تاريخي فليس من المقبول أن تنتشر هذه الآفة وبشكل ملفت للنظر بين ليلة وضحاها في عهد السلطان محمد بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن نصر والذي يعرف بأبي سعيد البرميخو حكمه (٧٦١-٧٦٣هـ / ١٣٥٩-١٣٦١م)^(٣).

من الراجح أن زراعة وتعاطي الحشيشة قد بدأ انتشاره في المشرق ومن ثم بعد ذلك انتقل الى المغرب، ويبدو أن الغرب الاسلامي في مأمّن من تلك الآفة حتى القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي.

(١) شيخة، المرجع السابق، ١ / ١٢٥.

(٢) السامرائي، عبدالحميد حسين أحمد، المؤسسات الإدارية في المغرب الاسلامي في خلال القرن السادس الهجري، (ط١، دار ابن الاثير للطباعة والنشر، جامعة الموصل: ٢٠٠٩)، ص ٢٢٨ / ٣٣٤.

(٣) زمباور، معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، اخرجته: زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، اشترك في ترجمة بعض فصوله: سيده اسماعيل كاشف وآخرون، (مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١)، ج ١ / ٩٣-٩٥.

والدليل على ذلك الملاحظة التي ابداهها الرحالة الغرناطي ابن سعيد المغربي (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) حينما زار مصر في ذلك الوقت اذ عاب على المصريين اكلهم الحشيشة مبيناً أن امثال هذه العادات القبيحة لا توجد في بلاده (١).

في حين اشار أحد الباحثين الى أن المجتمع الغرناطي كان قد وصل الى مرتبة عالية من التطور في ميادين الحضارة وهو مجتمع توفر فيه قسط كبير من الحرية ولم ينس حياة المرح حتى في ايام المحن ولم تغمره الكآبة الا عندما دق الاسبان ابواب غرناطة (٢).

العمق التاريخي لنبات القنب "الحشيشة":

كان هناك ذكر لنبات القنب الذي تستخرج منه الحشيشة في البرديات المصرية القديمة ووجد من بين النباتات المنقوشة على آثار القدماء، كما وأنه كان معروف لدى الهنود منذ حوالي ٩٠٠ سنة قبل الميلاد وعرفه الصينيون منذ القرن السادس قبل الميلاد (٣)، وقيل أنه كان على عهد اليونانيين والدليل على ذلك ما نقله الاطباء في كتبهم عن بقراط وجالينوس من مزاج هذا العقار وخواصه ومنافعه ومضاره (٤).

اختلفت الآراء حول تحديد الموطن الاصلي لنبات القنب "الحشيش"، فبعد أن ذكر أن موطنه آسيا (٥)، قيل أن بلاد فارس هي الموطن الاصلي له في حين يرجح بعض

(١) ابن الخطيب، لسان الدين، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق: أحمد مختار العبادي، مراجعة: عبدالعزيز الاهواني، (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة: د. ت)، ص ٢١.

(٢) فرحات، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٣) الدجوي، علي، موسوعة النباتات الطبية والعطرية، (ط١، مطبعة الاندلس، القاهرة: ١٩٩٦)، ٢ / ٢٠٢.

(٤) المقريري، نقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المسمى بالخطط المقريرية، (مكتبة الآداب، القاهرة: ١٩٩٦)، ٣ / ٢٠٧.

(٥) غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، (دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة: ١٩٦٥)، ص ١٤٠١.

العلماء أنه هندي الاصل وطائفة أخرى تقول أن موطنه الاصيل هو بلاد سيبيريا في شمال روسيا^(١).

علماء بأن الحشيش يجهز من القنب Cannabis Indica^(٢) ويسمى حبه في العجم شاهدانج أي ملك الحبوب ويسمى في مصر شرائق وباللغة التركية يسمى هند قنابي^(٣)، وهو نوعان ذكر لا يحمل حياً أو انثى تحمل الحب^(٤)، (انظر ملحق ١ صورة لنبات القنب)، ومنه يستخرج المخدر المضر المعروف بالحشيش والحشيشة^(٥)، وذلك عن طريق كشط الافرازات الصمغية التي تفرزها الازهار المؤنثة او بعصر الاطراف الغضة والأوراق^(٦)، لاستخلاص المادة الراتنجية التي هي الحشيش نفسه^(٧)، ويستخدم هذا المستحضر أما بالمضغ وأما بالتدخين او يتعاطاها المريض على شكل سائل وتأثيرها ناتج عن وجود مواد راتنجية معينة^(٨)، وأن كثرة تناوله يصل بالإنسان الى حد الرعونة حتى قيل أنه قد استعمله قوم فاخثلت عقولهم وأدى بهم الحال الى الجنون^(٩).

(١) الدجوي، المرجع السابق، ٢/ ٢٠٢.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية، نقلها الى العربية، محمد ثابت الفندي وآخرون، تراجعها: وزارة المعارف العمومية، (القاهرة: د. ت)، ٧/ ٤٣٤.

(٣) مفتاح، رمزي، احياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، القاهرة: ١٩٥٣)، ص ٥٢٤.

(٤) النابلسي، عبدالغني، علم الملاحه في علم الفلاحة، (ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت: ١٩٧٩)، ص ١١٩.

(٥) الشهابي، مصطفى، معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية، (ط٢، مطبعة مصر، القاهرة: ١٩٥٧)، ص ١٢٠.

(٦) غربال، المرجع السابق، ص ١٤٠١.

(٧) مفتاح، المرجع السابق، ص ٥٢٤.

(٨) غربال، المرجع السابق، ص ٧٢١.

(٩) ابو النصر، عادل، تاريخ النبات، (ط١، المطبعة الوطنية، بيروت: ١٩٦٢)، ص ٣١٨.

ذكر أحد الباحثين أن تناول الحشيشة لم يظهر في مؤلفات الفقهاء الا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي (١)، في حين أنه كان بالهند شيخ يسمى "بيررطن" هو أول من اظهر لأهل الهند اكلها "الحشيشة" ولم يكونوا يعرفوها قبل ذلك فشاع امرها في بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن ثم الى أهل فارس ثم ورد خبرها الى أهل العراق والروم والشام ومصر في سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م (٢).

وبناءً على ذلك نستدل بأن زراعة الحشيش وتعاطيه قد بدأ في المشرق ومن ثم بعد ذلك انتقل الى المغرب لأنه قد زرع في اوربا ولكن قلت فيه نسبة المادة الراتجية التي هي الحشيش نفسه (٣)، ومن الراجح أنه قد جرب محاولات لزراعته في المغرب بدليل أن أحد الباحثين قد ذكر أن القنب يزرع حالياً في مساحات متفرقة في المغرب (٤)، ولا بد أن تكون لهذه الزراعة عمق تاريخي.

المحتسب ومتعاطي الحشيشة:

وكانت رسائل الحسبة تحرص كل الحرص على شن الحرب على تلك الآفة، وتنص على أن المحتسب يجب عليه أن يمنع أهل الأذى جملة، كالحشاشين المنتحلين لذوات السموم لاختلاف انواعها (٥).

كيفية مجيء ابو عبدالله محمد بن اسماعيل "البرميخو" الى السلطنة في غرناطة:

كان للسلطان ابي الحجاج يوسف النيار بن اسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ / ١٢٣٢-١٣٥٤م) ثلاثة ذكور "محمد ولي العهد واسماعيل وقيس" (انظر ملحق رقم ٢ لتوضيح النسب) وقد استولى اسماعيل على عرش غرناطة من اخية محمد بعد الثورة التي اندلعت

(١) كحالة، عمر رضا، دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية، (المطبعة التعاونية، دمشق: ١٩٧٣)، ١٩٧٣، ص ٢٠٦.

(٢) المقريري، المصدر السابق، ٢٠٧/٣.

(٣) مفتاح، المرجع السابق، ص ٥٢٤.

(٤) الدجوي، المرجع السابق، ٢٠٣/٢.

(٥) ابن عبدون، رسالة في الحسبة والقضاء، ثلاث رسائل اندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، نشر ليفي بروفنسال، (مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة: ١٩٥٥)، ص ١٢٣.

في غرناطة عام ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م^(١)، بمساعدة ابن عمه وزوج شقيقته الرئيس ابي سعيد عبدالله المعروف "بالمريخو"^(٢) وطمع هذا الاخير في الملك فقتل اسماعيل الذي استمر حكمه حوالي سنة في عام ٧٦١هـ / ١٣٥٩م والحق به اخاه الصبي قيس وطرحت جثتهما بالعراء مغطاة باسمال^(٣)، وتلت بمري قيس الذي يدعى "عباداً" فكان امرهما عبرة^(٤).

ويبدو أن عبدالله محمد بن اسماعيل "بيريخو" صهر ام اسماعيل وزوج ابنتها كان يأمل من هذا الزواج أن يصير الملك الى اسماعيل شقيق زوجته فيصبح له هو على عهده شأن الى أن يأتيه عرش غرناطة يسعى ولكنه صدم ورأى أن حلمه اصبح عسيراً يوم رفع (رضوان الحاجب)^(٥) محمداً الغني بالله على العرش وحجز اسماعيل في القصر

(١) ابن الخطيب، الاشارة الى أدب الوزارة، تحقيق: محمد كمال شبانة، (مطبعة الساحل، الرباط: د. ت)، ص ٢٠.

(٢) قيل أن ابو عبدالله محمد السادس "الغالب بالله" حكمه (٧٦١-٧٦٣هـ / ١٣٥٩-١٣٦١م) تسمية المصادر الاسبانية المعاصرة بأبي سعيد البرميخو "Bermejo" انظر: ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ١٢-١٣، وهذه الكلمة الأخيرة معناها باللغة الاسبانية اللون البرتقالي الضارب الى الحمرة وذلك نسبة الى لون لحيته وشعره، انظر: الطوخي، أحمد محمد، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، (الناشر مؤسسة شباب الجامعة، مطابع رويال، الاسكندرية: ١٩٩٧)، ص ١٥٨، وقيل لأنه كان اشقر مائل الى الحمرة، انظر: الحجى، عبدالرحمن علي، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص ٦١٣.

(٣) اسمال، السمل: الخلق من الثياب، انظر: الرازي، محمد بن ابي بكر عبدالقادر، مختار الصحاح، (دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٨١)، ص ٣١٤.

(٤) ابن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، دراسة وتحقيق: محمد الشريف قاهر، (ط١)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: ١٩٧٣)، ص ٢٦٥.

(٥) ابو النعيم رضوان بن عبدالله ولد في قلصادة (جنوب قشتالة) وكانت عائلة والده من قشتالة وعائلة امه من برشلونة وعندما كان شاباً قتل رجلاً وهرب الى قلصارة حيث اسر وبيع الى السلطان اسماعيل الأول وفي عصر هذا السلطان وفي عصر خلفائه محمد الرابع ويوسف الأول ومحمد الخامس وصل رضوان الى مرتبة قيادة الجيوش وكذلك الحجابة والوزير الأول الذي كان يجمع في يده بكل خيوط السلطة في الدولة توفي سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م، انظر: ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة، حقق نصه: محمد عبدالله عنان، (ط٢)، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: ١٩٧٣)، ١ / ٥٠٧.

القصر بجوار الحمراء وحال بين أم اسماعيل وبين رجائها أن ترى ولدها وقد قرت به العين سعيداً على عرش ابيه (١).

وكان اسماعيل الثاني ٧٦٠-٧٦١هـ/١٣٥٨-١٣٥٩م والذي دام كمه أقل من سنة فتى وسيماً بدنياً على حداثة سنة خنتاً لمجاورة النساء منحطاً في درك اللذة (٢)، ولم يحسن سياسة الرعية لانغماسه في اللذة وتقريب أهل الترف (٣)، قاصر الهمة على حياؤه ودمائه قام بأمره ابن عم ابيه واقعهه الاريكه وضم له الرجال (٤)، ولذلك استضعفه صهره محمد بن اسماعيل "البرميخو" فقتله واستولى على الملك (٥)، واندلعت عليه الفتن من كل حذب وصوب (٦).

الوزير ابن الخطيب ووصفه لأبي سعيد البرميخو:

لقد اسهب واطنب الوزير ابن الخطيب (ت ٧٦٦هـ/١٣٦٤م) في وصف البرميخو مبيناً كل الصفات القبيحة التي من الصعب أن تجتمع في رجل واحد ولكن "البرميخو" حسب قول الوزير ابن الخطيب كان شيطاناً ذميم الخلق حرفوشاً (٧) على عرف المشاركة متزامياً للخسائس مألماً للدعوة (٨) والاجلاف (٩) والسوار (١٠) وأولى الريب خبيثاً كثير

(١) بو طالب، عبدالهادي، وزير غرناطة لسان الدين محمد ابن الخطيب السلماي، (ط١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٠)، ص ١٠٧.

(٢) ابن الخطيب، اللمة البدرية في الدولة النصرية، (ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت: ١٩٧٨)، ص ١٢٦.

(٣) فرحات، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٤) ابن الخطيب، اللمة البدرية، ص ١٢٧.

(٥) فرحات، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٦) بو طالب، المرجع السابق، ص ١٤١.

(٧) حرفوش: مستعملة في مصر تطلق على الرعاع وزعر العامة، للمزيد انظر: النجار، محمد رجب، الشطار والعيارين في التراث العربي، (ط٢، ذات السلاسل، القاهرة: ١٩٨٩)، ص ١٨٠-١٨١.

(٨) الدر، بفتحيتين والدعارة بالفتح: الخُبْثُ والفسق، انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص ٢٠٥.

(٩) جلف، قولهم اعرابي جلف أي جاف، انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص ١٠٧.

(١٠) اسوار: الذي يثب ويعريد على الشراب، والذي تدور الخمر في رأسه سريعاً، انظر: مسعود، جبران، الرائد معجم لغوي عصري، (ط١، دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٦٤)، ص ٨٤٨.

النكر منغمساً في العهن^(١) كلفاً^(٢) بالاحداث متقلباً عليهم في الطرق خليع الرسن^(٣) ساقط الحشمة كثير التبذل قواد عصبة كلاب^(٤) معالجاً لامراضها مباشر للصيد بها راجلاً في ثياب منتاب الشعر من الجلود والسوابل والاسمال عقد له السلطان على بنته لوقوع القحط في رجال بيتهم^(٥)، وكان سيء السيرة مشهوراً بالحمافة وعدم الرؤية في الامور منحطاً في لذاته وشهوته^(٦).

سياسة البرميخو في رعيته:

بعد كل تلك الصفات المشينة التي ذكرها الوزير ابن الخطيب واصفاً فيها ابو سعيد البرميخو لنا أن نتصور كيفية سياسته التي اعتمدها في حكم رعيته ومعتمدين في ذلك على الشاهد الوحيد الذي وصلتنا اخباره وباعتباره كان قريباً من الاحداث ومشاركاً فيها بحكم تقلده المناصب فيها، متمنين أن تصلنا شهادات أخرى من كتاب آخرين عاصروا الحدث ولكن بقيت كتاباتهم مطمورة لم تكتشف لحد الآن، لأن الشاهد الواحد ليس كعديد الشواهد.

لقد اتهم الوزير ابن الخطيب السلطان ابو سعيد البرميخو بالضغط على رعاياه عن طريق زيادة الضرائب وانزال جنوده في دورهم كما يتهمه في سلوكه الشخصي بالخروج عن حرمة السلطنة وهيبته^(٧) كسيرة عاري الرأس مشمراً عن ساعديه مخاطباً العامة في الطريق بصورة تثير الاشمئزاز^(٨) ووصل الأمر الى أن الوزير ابن الخطيب طاله

(١) العهن: الصوف، انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص ٤٦٠.

(٢) كلف: أي ألع به، انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص ٥٧٦.

(٣) الرسن: الحبل وجمعه ارسان، ورسن الفرس شده بالرسن، انظر: الرازي، مختار الصحاح، ص ٢٤٣.

(٤) قواد عصبة كلاب: من الراجح أنه كان لديه مجموعة من الكلاب يعتني بها.

(٥) ابن الخطيب، الاحاطة، ١ / ٥٢٣.

(٦) ابن الخطيب، ديوان الصيب، ص ٤٢.

(٧) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ٢٠.

(٨) الطوخي، المرجع السابق، ص ١٦٩.

الاعتقال بأمر من السلطان "البرميخو" وضيق عليه في محبسه الى ان شفع فيه فأطلقه (١).

من الراجح أن حياة الرخاء والسعة في العيش فضلاً عن مجالس اللهو والترف حيث الشراب والرقص والغناء والنساء والراقصات قد أثرن كثيراً في الحياة التي كن يعيشونها في غرناطة (٢)، حيث كان يصاحب الاحتفالات بالأعياد والمناسبات في غرناطة شرب الخمر وتعاطي الحشيش (٣) فقد اشير الى أن الاسلام المتشدد والصارم جداً مع النساء قد خفف من صرامته على نحو استثنائي في الأندلس، انبثاقاً من الجو الذي خففته العادات النصرانية (٤).

تعاطي الحشيشة في عهد حكم البرميخو:

اشار أحد الباحثين أن عادة تناول المخدرات عرفت فئة من الغرناطيين في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي - الثامن الهجري (٥) في حين ذكر الوزير ابن الخطيب أن السلطان البرميخو كان يتعاطى الحشيش الذي انتشر في ايامه حتى شمل الخاصة والعامة، وهذه الحقيقة التي اوردها ابن الخطيب عن انتشار الحشيش في غرناطة في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي (٦)، قد ايدتها المساجلات الشعرية التي

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن، محمد، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام الوب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت: د. ت)، ٧ / ٣٣٣؛ علي، محمد كرد، كنوز الاجداد، (مطبعة الترقى، دمشق: ١٩٥٠)، ص ٣٤٤.

(٢) فرحات، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٣) الطوخي، المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٤) الجبوسي، سلمى الخضراء، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، (ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ١٩٩٩)، ٢ / ١٠٠٠.

(٥) فرحات، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٦) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ٢٠.

دارت بين شعراء غرناطة في ذلك العهد حول تفضيل الحشيش على الخمر (١)، ومثال ذلك الشاعر الغرناطي ابن الوحيد (٧١١هـ / ٣١١م) في قوله:

وخضراء بل لا تفعل الخمر فعلها
لها وثبات في الحشا وثبات
توَجُّجُ ناراً في الحشار وهي حبة
وتبدي لذيد العيش وهي نبات (٢)

وهناك أبيات قيلت في هذا المضمون أيضاً تنسب إلى علي بن مكي في أبيات انشدها من لفظه وهي (٣):

ألا فأكف الأحران عني مع الضر
بعذراء زُفِّت في ملاحفها
تجلت لنا لما تحلت بسندس
فجلت عن التشبيه في النظم والنثر
بدأت تملأ الأبصار نوراً بحسنها
فأجمل نور الروض والزهر بالزهر
عروس يسر النفس مكنون سيرها
وتصبح في كل الحواس إذا تسرى
فلذوق منها مطعم الشهد رائقاً
وفي لونها للطرف أحسن نزهة
تركب من قان وأبيض فانتنت
فيكسف نور الشمس حمرة لونها
علت رتبة في حسنها وكأنها
تبدت فأيدت ما أجن من الهوى
جميلة أوصاف جليلة رتبة
تغالت في مدائح شعري

(١) الطوخي، المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٢) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ٢١.

(٣) المقرئ، خطط، ٣/ ٢٠٧.

فَقَمَّ فَاتِفَ جَيْشِ الْهَمِّ وَاكْفَفَ يَدَ الْعَنَا
بِهَنْدِيَّةٍ فِي أَصْلِ أَظْهَارِ أَكْلِهَا
تَزِيلَ لِهَيْبِ الْهَمِّ عَنَا بِأَكْلِهَا
وتهدى لنا الافراح في السر والجهر

وهناك أبيات اخرى تنسبها المراجع المغربية الى الشاعر الغرناطي محمد الحجر
الرعييني المعروف بأبن خميس (ت ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) قال فيها (١):

دَعِ الْخَمْرَ وَأَشْرِبْ مِنْ مَدَامَةِ حَيْدِرٍ
هِيَ الْبَكْرُ لَمْ تَنْكُحْ بِمَاءِ سَحَابَةٍ
وَلَا عِبَتْ الْقَسِيْسَ يَوْمًا بِكَاسِهَا
وَلَا قَوْلٌ فِي تَحْرِيْمِهَا عِنْدَ مَالِكٍ
وَلَا أَثْبَتَ النُّعْمَانُ تَنْجِيْسَ عَيْنِهَا
وَفِيهَا مَعَانٍ لَيْسَ لِلْخَمْرِ مِثْلُهَا
مَعْتَقَةٌ خَضْرَاءُ لَوْنِ الزُّبْرُجِدِ
وَلَا عَصْرَتْ بِالرَّجْلِ يَوْمًا وَلَا بِالْيَدِ
وَلَا قَرَّبُوا مِنْ دَنِّهَا نَفْسَ مُلْحَدٍ
وَلَا حَدَّ عَنِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدِ
فَخَذَهَا بِحَدِّ مُشْرِفِي فِي مُهْنَدِ
فَلَا تَسْمَعُ فِيهَا كَلَامَ الْمُفْتَدِ

وكذلك نُسب اظهار الحشيشة الى الشيخ حيدر الأديب أحمد بن محمد بن الرسام
الجلبي فقال (٢):

وَمَهْفَهْفٍ بَادِي النَّفَارِ عَهْدْتُهُ
فَرَأَيْتُهُ بَعْضَ اللَّيَالِي ضَاحِكًا
فَقَضَيْتُ مِنْهُ مَآرِبِي وَشَكَرْتُهُ
فَأَجَابَنِي لَا تَشْكُرَنَّ خَلَائِقِي
فَحَشِيْشَةُ الْأَفْرَاحِ تَشْفَعُ عِنْدَنَا
لَا أَلْتَقِيهِ قَطُّ غَيْرَ مُعْبَسِ
سَهْلَ الْعَرِيكَةِ رِيضًا فِي الْمَجْلِسِ
أَذْ صَارَ مِنْ بَعْدِ التَّنَافُرِ مُؤْنَسِي
وَأَشْكُرُ شَفِيْعَكَ فَهُوَ خَمْرُ الْمُفْلَسِ
لِلْعَاشِقِينَ بِبَسْطِهَا لِلْأَنْفَسِ

(١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ٢٠.

(٢) المقرئزي، الخطط، ٣ / ٢٠٦.

وَإِذَا هَمَمْتَ بِصَيْدِ ظَبْيٍ نَافِرٍ فَاجْهَدْ بِأَنْ يَرعى حَشِيشَ الْقَتَبِسِ
وَاشْكُرْ عَصَابَةَ حَيْدِرٍ إِذْ أَظْهَرُوا لِنُذُوي الْخِلاعةِ مَذْهَبَ الْمُتَحَمِّسِ

أن التغني بهذه الآفة الفتاكة في ذلك الوقت بل وتفضيلها على الخمر لدليل على سعة انتشارها بين العامة والخاصة في المجتمع الغرناطي في عهد السلطان أبو سعيد البرميخو والذي كان حسب قول الوزير ابن الخطيب حرفوشا على عرف المشاركة^(١).

حديث صاحب شرطة السلطان ابو سعيد البرميخو:

كان تناول الحشيش بعلم السلطان ابو سعيد البرميخو وقد أكد ذلك لصاحب شرطته باعطائه اماكن تناولها، فقد حدث صاحب شرطته قال: اطريته باجتتاب الناس الخمر في ايامه وتحت استناده وظاهرة بلده من قاذوراتها فقال لي في الملاء المشهود، والحشيش كيف حالها؟ قلت ما عثرت على شيء منه، فقال هيهات، انزل الى بيت فلان وفلان وفلان وعد كثيراً من الساسة والاوزاد والصفاعين^(٢)، رسم مكانهم وينسبهم نسبة الأصمعي اخاذ العرب وبطونها ويصف الناصح والغاش منهم بصفته وربما دعا بعض مشيختهم بالعمومة قال وانصرفت الى ما ذكر فو الله ما أخطأت شيئاً مما رسمه ولا فقدت شيئاً مما ذكره ولغشيانه بيوتهم وانخراطه في جملة منتابيهم يقول فهو والله استاذي في الشرطة^(٣).

(١) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ٢٠.

(٢) الصفاعين، جمع صفعان ومصفعاتي وهو المهرج الذي يصفع كثيراً، انظر: الطوخي، مظاهر الحضارة في الاندلس، هامش ص ١٠٤.

(٣) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص ١٨٣.

أن هذا النص يؤكد على أن السلطان ابو سعيد البرميخو كان يتردد على تلك الاماكن التي وصفها لصاحب شرطته والتي يتم فيها تناول الحشيش، باعتباره أحد متناولي الحشيش في تلك الاماكن.

ومن الراجح أن تناول الحشيشة في غرناطة كان موجود قبل عهد السلطان ابو سعيد البرميخو ولكن بالخفاء وليس بالعلنية التي كانت عليه في عهد البرميخو الذي كان أحد متناوليهما، مما شجع الشعراء على التغني بها وذكر تناولها وتفضيلها على الخمر من دون حرج او خوف.

الخاتمة:

* كان لغرناطة وضعها الخاص بها بحكم قربها من الممالك المسيحية والاحتكاك بها والاطلاع على العادات والتقاليد الخاصة بهم، كل ذلك أثر تأثيراً كبيراً على الغرناطيين، حتى أن نقاد القرن العشرين اشاروا الى أن النساء الاندلسيات لم يكن سجينات القواعد والعادات الاسلامية التي كنا نستطيع رؤية باقي المسلمين سجناء لها.

* السلطان الفاقد للحشمة والوقار والمبتذل، مما لا شك فيه عامل تشجيع على انتشار تناول الحشيشة من قبل العامة والخاصة، وهذا ما انطبق على السلطان ابو سعيد البرميخو.

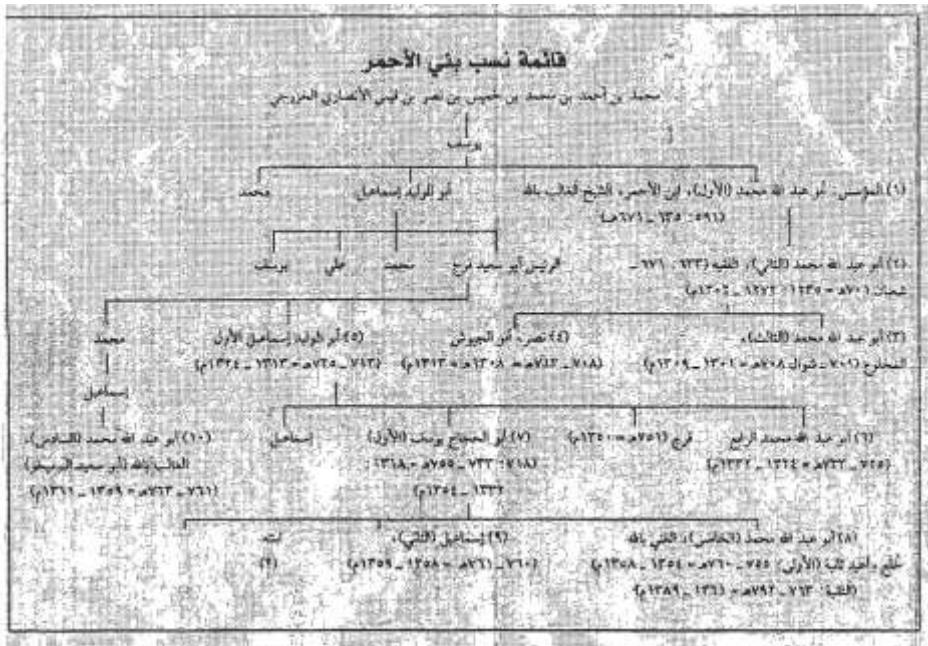
* سكان غرناطة كانوا يعيشون في رخاء وسعة وكثرت عندهم مجالس اللهو والترف، ومن الراجح أن يتخلل تلك المجالس تعاطي الحشيشة استكمالاً للوصول الى القمة في اللهو والترف.

* المجتمع الغرناطي وصل الى مرتبة عالية من التطور في ميادين الحضارة فضلاً عن توفر فيه قسط كبير من الحرية ولم ينسَ حياة المرح والاستمتاع بمباهج الحياة وتعاطي الحشيشة إحداها.

ملحق رقم (١) نبات القنب



ملحق رقم (٢) لتوضيح النسب



نقلاً عن: الحجى، عبدالرحمن علي، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢ - ٨٩٧ هـ / ٧١١ - ١٤٩٢)، (ط٢، دار القلم، دمشق: ٢٠٠٨)، ص ٦١٦.

The Social Epidemics in Granada Society, Hashish As a Study. (As A Sample) (761-763 A.H) (1359-1361 A.D)

Asst.Prof.Dr. Raed Muhammad Hamid Hasan Al-Tai

Key words: social ills, Islamic customs, drugs, Granada society

Abstract

The research aims at shedding light on the epidemic which was separated in Grenadian Society, which suppose to be secret and rolled by concealment, in contrast this strange epidemic of habits, and Islamic moral was openly, practice by public and private. It is the epidemic of taking hashish among the Grenadian Society.

The thing which is draw attention at that epoch was the chanting by the poets on that destroyed epidemic and prefer it on alcohol, trying to forget that putting into circulation to this epidemic is a dangerous threatening the entity of the Islamic Nation and bring to any society weakness.